الماء ودلالاته في المعتقد الديني

منصوري مصطفى
جامعة سيدي بلعباس

تشترك الكتب السماوية "القرآن، التوراة، الإنجيل" في الاحتفاء بالماء بوصفه عنصراً، بُني عليه الوجود. فمنه بدأ الخلق، وإليه يرجع الفضل في استمرار الحياة. ولا شيءَ قادر على تعويضه أو إغناء الإنسان عنه. و لكنّه في المقابل يمكن أن يذهب الخلق كلّه في لحظة واحدة. فتتقلب نعمته إلى دمارٍ شامل، يعيد الإنسانية إلى بدايتها الأولى.

من أجل ذلك حَمل "الماء" في الكتب السّماوية صورتين متناقضتين. الأولى يكون فيها رمزاً " للخصوبة" والنّماء و الثانية يكون طوفانا لا يبقي و لا يذر. وقد يعود ذلك إلى طبيعة "الماء" كمادة حاملة لذلك التناقض، الحاجة إليه والقلق من أن تُشكّل قلّته نهاية عهد الإنسان بالأرض، من جهة، و اندفاعه بدون انقطاع ينهي وجوده من جهة أخرى.إن شحّ السّماء يبكي و غزارة عطائها يدمّر ويميت.

أ – دلالات لفظة " ماء" في القرآن الكريم*1،

تتخذ لفظة " ماء" في القرآن الكريم دلالات متعددة و مستويات متباينة، تبعدها عن معناها الأصلي المعجمي، لتطبع بمعاني الرّحمة والطّهارة و البركة، وتكون أصلاً لكل شيء {وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}2 فتقرن كل

المخلوقات به {و الله خلق كلَّ دَابّةٍ منْ ماءٍ، فمنهم مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، و مِنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، و مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَع}3 .و من ثم فحريّ على الإنسان أن يتأمّل في مصدر خلقه و يعتبر { فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمّا خُلِقَ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ}4. وفي كلّ الأحوال جاءت " ماء" مُرادفةً للرِّزق والنّماء و حسن المثاب، لأولئك الّذين ساروا على نهج ربِّهم و اتّبعوا شرائعه، مصدّقين أنبياءَه، واثقين من رحمته التي يحمل "الماء" أقصى معانيها. {و تَرَى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ و أَنْبَتَتْ من كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}5 فإذا بالأرض تتحرك نشوة بالماء، تتحول من همودها إلى لحظة تعج بالحياة.

أما عندما يريد "القرآن الكريم" أن يقرن "الماء" بالدّمَار، والعذاب، والانتقام ممن ضلوا سبيله، وأساءوا تقدير عقابه، حين دعاهم إلى التّسبيح والشكر، فإنّه يوظّف لفظة أخرى و إن كانت من صميمها. {وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}6. وظاهر الآية يشير إلى مطرين، الأول لمن أطاع واتبع الهدى، ويسميه "ماء" يطهِّر عباد الله الصالحين {و أَنْزَلْنَا من السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً}7 و الثاني يجعله مطراً ولكنّه يمكن أن يكون حجراً. {و أَمْطَرْنَا عليها حِجَارةً من سِجِّيل منضودٍ}.8

يصبح " المطر" مرتبطاً بعاقبة المجرمين، و يتحوّل ذلك " الماء" المنزّل من السّماء إلى عذابٍ يظهر قدرة الخالق على الانتقام؛ عندما يُعصى أمره و يخذل أنبياؤه.و بعد ذلك يصير "المطر" عقابا بعد أن كان نعمة و رزقا و نماء و حياة. وقد تنعت به قرية بعينها حين يصيبها سوء مَنْ خرج على نهج ربّه، و أشرك به

واستبعد غضبه، {و لقد أتَوْا على القَرْيَةِ التي أُمطرت مطَر السوء أ فلمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً}.9

لا شك أن هذا التّباين في دلالات توظيف لفظتي ماء/ مطر في القرآن الكريم، قادر على الكشف عن طبيعة العقلية العربية قبل الإسلام، الّتي يفترض أنّه يخاطبها بلغة و بأسلوب تعيه، و تدرك أبعاده.

فالمطر ظاهرة، لم يكن العربي في جاهليته قادرا على فك لغزها وتتبع مصدرها، فهو يعرف فقط أنّها "ماء" ينزل من السّماء، يحيل مرعاه من مكان قاحل لا نبت فيه، إلى فضاء خصب يغنيه عن التّنقل بحثاً عن الكلأ في مكان قد تطول مدة الوصول إليه و لا تدوم. و لكنه إذا أفرط في النّزول قهره و دمّر مسعاه، إذ لاَ شيء يقيه من غزراتها فصحراؤه لا غطاء لها، و لا حجاب يهدئ روعه.

فلا غرابة إذاً أن يكون ذلك التوظيف القرآني، مراعيا لذاك الاضطراب والقلق، و عاكساً لثنائية أتعبت الجاهلي، فهو يطلب أن يستمطر و لكنّه يحبّه غيثا لا مطراً. فالغيث و الماء رحمة و خصب و حياة أما "المطر" فجدب ودمار ثم موت .و تلك معادلة شبه الجزيرة العربية، هي لا تعرف الاعتدال مطلقا. . . إمّا الكثرة المدمّرة و إما القلّة القاتلة.

ب ، الماء في التوراة،

على خلاف القرآن الكريم، لم يُحتفف بلفظة "ماء" في التّوراة. وبقيت محتفظة بمعناها المعجمي، طبيعته الغذائية "الشرب" في الغالب الأعم. ولا تفسير

لذلك سوى تباين الوظيفة الدينية للكتابيين و تناقض رؤيتها للإنسان والكون والحياة في الآن نفسه. فالقرآن يدعو مورديه إلى الكدّ في الدنيا لينعموا في الآخرة، و التوراة يرفع المؤمنين به فوق مصافّ البشر.

فبنو إسرائيل قوم لم تكن تحركهم الحاجة إلى الماء كحال العرب ، و غيرهم، ولا كان هاجسهم الأول، على الأقل في توراتهم –البحث عن كلأ لماشيتهم، فقد كانوا منشغلين ((بصناعتهم المعدنية كالحدادة و الصياغة وصنع الأسلحة))10 همّهم الأساسي الامتثال لأمر الإله. ،كما يزعمون، فخروجهم من مصدر إلى فلسطين، لم يكن إلاّ هروباً من بطش فرعون وطغيانه. ((قال الرّب لموسى أدخل إلى فرعون و قل له هكذا يقول الرّب أطلق شعبي ليعبدوني))11 ولاقتفاء أثرِ رزقٍ أوفر، في مناطق أكثر خصوبة. فلا غرابة أن تكون لفظة " ماء" جارية في دائرة التوظيف المألوف، وإن تحوّل أحيانا إلى محفّزٍ للذاكرة لدى شعب مشدود إلى الماضي بحبال متينة. فيصبح "الماء" مسهما في إعلان عدم موته و إن تنائى، ((فعاد إسحاق و نبش آبار "الماء" التي حفروها في أيام إبراهيم أبيه و طمّها الفلسطينيون بعد موته))12 و لكنه قد يتحول إلى دمٍ، عقابا من الله و إظهارا لقدرته و إيذاناً بنصرة نبيّه على من اعترض سبيله، ومنع عباده من أن يعبدوه. ((و يكون إذا لم يصدّقوا(...)ولم يسمعوا لقولك أنّك تأخذ من ماء النّهر، و تسكب على اليابسة، فيصير "الماء" الذي تأخذه بين النّهر دماً على اليابسة))13. و قد ينتقل ذلك من اقتراح إلى فعل يرى ((فتحول كلّ الماء الّذي في النّهر دما))14 غير أن ذلك لم يمنع "فرعون" من الاستمرار في طغيانه و إصراره على عدم إطلاق سراح بني إسرائيل إلى حيث أمرهم ربّهم. و إن أبدى دهشته وانبهاره من تحول عصا

موسى إلى حية تسعى، فيتمادى في جبروته، فيُحوّل ماء النّهر و كلّ المجاري إلى ضفادع و لا يَصْدَع.

إذا كان أمر "الماء" هكذا في التوراة، مادة لتجلي المعجزات، ومجالاً تنطلق منه آيات الرّب، لفرعون لعله يلين، و يأتمر لندائه، فيسمح بخروج بني إسرائيل لِيَصْحَبُوا موسى إلى فلسطين. فإن لفظة "مطر" تكاد تنعدم، ولم ترد إلا مرة أو مرّتين مرتبطة بعقاب الإلهي شأن "الماء" المتحوّل عن طبيعته الأولى عندما تمطر السّماء برداً خاصاً، يقتلع الأشجار، و يجتث أصل الإنسان و البهائم، فيعلن فناؤهم ((ها أنذا غدا مثل الآن، أمطر برداً عظيماً لم يكن مثله في مصر منذ تأسيسها إلى الآن))15 وعظمته ليست في كثرته فحسب، بل في قدرته التّدميريّة المرادفة لعذاب الرّب حين يخذله عباده، و لا يمتثلوا لرغبته. و هو بذلك برد سحري يؤذي كلّ شيء ((إلاّ أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد))16 و لا ينبغي له أن يمسسها بسوء فشعب الله المختار يسكنها.

يعود "الماء" في الأخير ليصير مادة للطّهارة، و الإعداد لتحصين المقدّس ليكهن للرّب ((و تقدس هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء))17. فالماء يزيل خبائث النّفس و يبعدها لتلتقي بربّها طاهرة من كل الشوائب المدنسة. فتصبح أهلاً لصفة "المختار" المبجّل لماء انقذ قومه من بطش الأعداء، وعذاب المتربصين حين تحوّل إلى سور. ((فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم و عن يسارهم)).18 فينجيهم من ملاحقة جنود "فرعون" ويجعلهم قوتا سائغا لمخلوقات البحر.

إن صورة " الماء" في التّوراة، لا ترمز إلى خصب منتظر، ولا هي نهاية لجدب قاتل، كدأب البشرية معه. و إنّما فعل سحري يصاحب الإسرائيلي، يمنع عنه أذى الآخرين مرّة، و يُحتمى بقدرته للنجاة مرات أخر، عند شعب يهوى الخوارق ويقف مشدوداً أمام المعجزات التي يرى جدواها في حينها. ولا يستبعد أن تنقل قدسية "الماء" بإخراج جديد معدّل لدى شعوب أخرى، كان لها اتصال ببني إسرائيل، و لن يكون من الخطأ اعتبار العرب أكثر تلك الشعوب اتصالا بهم*19

ج ، الماء في الإنجيل،

لم تشكل لفظة "ماء" في الإنجيل ظاهرة خاصة، تستدعي وقفة متأنية عن سرّ توظّيفها، بخلاف القرآن الكريم الّذي يمنحها دلالات تنمّ عن روح الشمول التي تميّز رسالته، و قدرته على الارتقاء بالإنسان من حاجاته البيولوجية، إلى عالم سامٍ يعانق فيه الصّفة الملائكية المبثوثة فيه.

لا يتّسم "الماء" في " الإنجيل" بتركيبه الكيميائي المعروف " ذرة من الهيدروجين و ذرتان من الأكسجين "، بل بقوّته السّحرية التي تمنع أي عطش، فهو ماء حيّ روحاني، جعله عيسى بن مريم عليه السّلام آية على صحة ما يدّعيه. ((قالت المرأة، يا سيّد لا دلوَ لك، و البئر عميقة فمن أين لك الماء الحيّ؟... أجاب يسوع و قال لها، كل من يشرب من هذا الماء يعطش [يقصد ماء البئر] أيضا و لكن من يشرب من "الماء" الذي أعطيه أنا، فلن يعطش أبداً.))20 لقد تحوّل "الماء" إلى كلام الرّب و توجيهاته و أوامره فمتى وقرت في قلب المؤمن أغنته عن طلبه. فهو مزيل لعطش، قد يزول ثم يعاود الكرّة كلّما افتقد، بل إن من اتبع "يسوع" و آمن

به، و شرب من مائه ((تجري من بطنه أنهار ماء حي))20وورود رمز "حي" "للماء" إشارة إلى الحياة التي تمنح للمؤمن، حياة لا تبقى لصيقة بواقع، يطلب الارتواء كلّما ظمئ، وكنه "ماء" يرفع إلى السّماء، وقد يسير المُرتوى من أحكام "يسوع" فوق الماء ذاته أو يصعد منه ليرى روح الله22، تماما كما كان يفعل ابنه في اعتقادهم.

لا تلبث لفظة "ماء" طويلا في السّماء محلّقة، فكثيرا ما تعود لتصبح مادة للشفاء. فالملَك قد ينزل في بركة "ماء" و يحركه، فيشفى من فعله كلّ من اعتراه مرض، و لن يحتاج في هذه الحالة إلا ليغتسل به. فإذا كان أعمى أرجع بصره، وأنعم به ثانية عندما يغتسل ((في بركة سلوم [الذي تفسيره مرسل]، فيمضي ويغتسل فيأتي بصيرا))23

ماء الإنجيل إذاً روحاني، تُروَى به الأفئدة لا الأجسام. ينزع شربه كل شوائب النّفس، فيكبح جماحها و يجعلها قانعة، روحها مُرَفْرِفَة في السّماء، ترجو لقاء ربِّها. أمّا عندما يرتبط بمعناها الكيميائي كان دواء وشفاء، بأمر من ربّ يسوع و من سار على هديه.

يصحّ بعد هذا كلّه الاعتقاد أن لفظة "ماء" في الكتب السّماوية تتخذ معناها من طبيعة كل دين، و نوعية الجمهور المتلقي له، فهي في القرآن تشغل مجالاً أوسع بتمييز دقيق بين دلالاته، يسميها "ماء" حين يراد لها أن تكون رحمة و حياة، و"مطرا" عندما تصير وابلاً من العذاب، و الانتقام ممن ضلوا السبيل. و هي في التوراة مادة، تتحول عن طبيعتها لتصير ضفادع، و دماً، و سوراً. تقي بني إسرائيل

من جبروت أعدائهم. و ذاك أمر طبيعي عند شعب، يعشق السّحر و الخوارق. أمّا في الإنجيل فقليلة الظهور و إن تم توظيفها فتكتسي معنى روحيا بعيدا عن إدراك الإنسان و عن واقعه. إنّه أسطوري لا يستبعد أن تكون له أصول في معتقدات من احتك بهم بنو إسرائيل في عهدهم الجديد و القديم أيضا.

الماء و فكرة الخلق الأول،

شغلت فكرة الخلق الأول العقل البشري، منذ أن صار قادراً على التّأمل في كنهه و في الأسرار العظمى التي أحاطت بخلقه. و لكنّه عبثاً حاول فقد لازمه الفشل في كلّ مرّة، لأن الإجابات التي كان يقدّمها لم تكن شافية، و لا قادرة على التخفيف من وطأة الأسئلة التي كانت تراوده و تقلقه و تهز كيانه. فلم يجد مناصاً من تكرار عمل الخلق على رأس كلّ سنة جديدة، حالماً بحلول مقنعةٍ، من خلال طقوس وممارسات، يزعم أن الخلق الأول تمّ على شاكلتها. والظاهر أن بعض تلك الأساطير كان مبعثها التوراة، فيما قدم القرآن الكريم إجابة مقنعة أكدها العلم وتطابقت مع أقوال بعض العلماء المحدثين.

، التوراة،

يلتقي الخلق التوراتي مع السّومري والبابلي؛ وإن تباين معه في بعض التّفاصيل –في اعتبار "الماء" مادة ميلاد الكون، منه انبثق الوجود، و أسِس للحياة. وقد أظهر العبرانيون من خلاله، براعة في احتواء حضارات السابقين عليهم، ودراية واسعة بمنجزات تلك الحضارات. ساعدهم في ذلك استيطانهم ل "بؤرة الحضارات" وصلة القرابة الدّموية التي تجمعهم بشعوب المنطقة. ومن ثم أسسوا

تصوّرهم للإنسان –الحياة، الكون.. مقتفين آثار أساطير بلاد الرّافدين، مع بعض الإضافات، التي لا تمنحهم مشروعية ملكيتها، و إن زعموا تفرّدهم بها، وبأنها وحي من الرّب، اختارهم وحدهم لينعموا بسموّ معانيها.

تحاول "التوراة" من صفحتها الأولى، تقنين عملية الخلق. فتسمي مادتها الأولى، تكوينا، ترى فيها أن الله خلق السماوات، والأرض بعد أن ((كانت الأرض خربة، و خالية، وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. و قال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النّور أنه حسن. و فصل الله بين النّور والظلمة،و دعا الله النّور نهارا، و الظّلمة دعاها ليلا. و كان مساء و كان صباحا يوما واحدا. و قال الله ليكن جلد وسط المياه و ليكن فاصلا بين مياه و مياه، فعل الله الجلد، و فصل بين المياه التي تحت الجلد و الحياة التي فوق الجلد... و قال الله لتجتمع المياه تحت السّماء إلى مكان واحد و لتظهر اليابسة و كان كذلك. و دعا الله اليابسة أرضا و مجمع المياه دعاه بحرا...))24 ثم تتوالى عملية الخلق إلى أن تصل إلى خلق آدم. و يتم ذلك كلّه في سبعة أيام، يكون السبت آخرها فيه يستريح الرّب.

إن استحضار الأساطير الشّرقية جلي واضح، لا يتطلب عناء في كشفه و الوقوف على كثير من تفاصيله إذ لا فرق بين التّصورين سوى في حضور آلهة هناك كانوا حرسا على "العماء المائي"، و مصرّين على إبقائه على وضعه، إذ تغيره زوال لسلطتهم و ذهاب ريحهم. و حضور إله واحد، سمته "التوراة" "الرّب" طورا و "الله" طورا آخر. و فيما عدا ذلك فلقاح التصوّرين واقع، لا يجحد أمره، إلا العبراني واضع التوراة نفسه. فالتّصوران ينطلقان من "العماء المائي"، والظلام الحالك، و يصلان إلى خلق الإنسان، الذي تكلفه الآلهة بمساعدة خلقها، لإبقاء

النّور و النّظام. و هي آخر حلقة من سلسلة التّكوين. قدّمها السّومري، و من سار على دربه، بشكل مجسد تتفق مع عقل ينفر من التّجريد، والماورائي، وجعلها العبراني ميّالة إلى نوع من السّموّ عن المادة، في تصوّر يزعم التنويه عن الخالق، ويطمح إلى جعله بعيدا عن الأنظار والمدارك.

إن ذلك لم يكفه فالتطابق مع الأساطير ظاهر، لا شبهة فيه فـ ((المبدأ الأول في كلا النّصين [الأسطوري والتوراتي] هو المياه، وانطلاقا من هذه المياه تتم كل عمليات الخلق. و هي أزلية غير مخلوقة في النّص البابلي هي جسد آلهة ثلاثة "ابسو" "تعامة" "نمو". و في النّص التّوراتي نجدها إلى جانب الآلهة دون أن يوضّح لنا النّص أيهما أقدم))[25] و يبدو أن العبراني مولع بأساطير بلاد الرّافدين إلى حدّ الهوس، فهو لم يخرج عن إطارها العام فحسب، بل حاول أيضا الاحتفاظ بتفاصيل لا تتعلق بفعل الخلق مباشرة. فجعل الإله يستريح بعدأن فرغ من التكوين، تماما كما كانت تفعل آلهة المصادر القديمة، و بنى معابد تحاكي النّموذج السّماوي. وهي بذلك ورثت من ((المفهوم الشرقي القديم عن المعبد من حيث هو نسخة من نموذج بدئي سماوي)) 26 جعلته قريبا من السّماء، بعيدا عن فساد العباد وضوضائهم.

إن أمر المطابقة إذا لا مراء فيه. فأي سر يخفيه "العبراني" حين أقدم على ذلك النّقل الواضح، لأساطير الأولين والزّعم بأن كتابه وحي من الله؟، فهل كان يعتقد أن استلهامه لها، ببعض التّصويبات كفيل بإبعاد شبه الانتماء؟ أم أن روح التّزيف التي وسمت حياته، تنسيه يقظة المقارن؟ الواقع أن مثل هذه الافتراضات لا تقدم إجابات شافية، ولكنّها في المقابل، تؤكد اغتراف النّص التوراتي و البابلي من

منبع واحد. وإذا كان ذاك المنبع مجهولا حتى الآن، فلن يبقى إلا الإقرار بأن التوراة اتخذت مادتها الأولى من التصور البابلي. إذ هو أسبق زمنا عليها، وأن حضارة "بلاد الرافدين" بمختلف أطوارها وصلت إلى حدود سوريا وفلسطين، موطن الإسرائليين كما يزعمون.

التوراة إذا، نسخة غير أمينة -على الأقل في تكوينه، لأساطير بلاد الرّافدين وللأسطورة البابلية تحديدا.

، ماء الخلق الأول عند مفسري القرآن الكريم،

شغلت قضية "الخلق الأول" معظم مفسري القرآن الكريم الأوائل. ونالت حظّاً وافراً من التّحليل والتأويل، مستحضرين مرويات وأحاديث،لم تنل الاتفاق من طرف الجميع. لاستنادها إلى مصادر ليست موثوقة دائما.

وقد ظهر ذلك الانشغال، حين تعرّضهم للآية المفصّلة للنشأة الأولى، {وَهُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ}27 وتجلى اهتمامهم في {وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ} إذ هي تثير أسئلة كثيرة، لم يقدر العقل الإنساني المحدود الجزم في وجوهها، فقد اختلفوا في، أيهما أسبق، العرش؟ أم الماء؟ و لم يجدوا مناصاً من الاستسلام لظاهر الآية، فاعتبروهما بداية الخلق قبل أن يخلق السموات و الأرض.

لكنّه إقرار لم يمنع عنهم سؤال آخر أكثر حرجاً ((أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟))28 و يأتي الجواب شافيا من الرسول عليه الصلاة والسّلام

((في عماد ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء))29. ويتم التأكيد عندما يعاد السّؤال ذاته الحضور، مع قوم جاؤوا الرسول عليه الصلاة و السّلام للتفقه في الدين، و معرفة بدء أمر الخلق. فيكون بالشكل الذي أشير إليه آنفاً، بيد أنه هذه المرة أكثر تفصيلا ((كان الله و لا شيء غيره و كان عرشه على الماء، وكتب في الذكر قبل كلّ شيء ثم خلق سبع سموات))30 وهكذا كان العرش على الماء.

تظهر الرّوايات السّابقة أن "الماء" خلق قبل كلّ شيء، ولكنّه يرتبط مع العرش، فلا يعلم أيهما أسبق إلى الوجود، و إن كان نصّ الآية يكشف ترتيب الماء قبل العرش. إذ يستدعي العرش وجود ماء سابق عليه "ليكون عليه". و لا تقدّم لنا رواية "وهبة بن منبه" تجلية لقضية الخلق، بل إنها تزيدها غموضا حيث جعل العرش و الماء متساويين في السبق الزّمني. حيث إن ((العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض، ثم قبضه من صفاء الماء، ثم فتح القبضة فارتفع دخان، ثم قضاها سبع سموات في يومين، ثم أخذ طينه من الماء، فوضعها مكان البيت، ثم دحا الأرض منها ثم خلق الأقوات في يومين والسموات في يومين فخلق الأرض في يومين ثم فرغ من آخر الخلق يوم السابع))31 وهو تفسير لا يبتعد كثيرا عمّا رأيناه في أساطير البابليين و الكنعانيين من أن الماء ينطلق منه كل شيء، و من جزئياته تخلق السموات و الأرض، ومن الدّخان المترسب من قبضة الماء تتم بقية الخلق و كل ذلك كان في ستة أيّام يفرغ منها في اليوم السابع.

تظهر خطورة تلك المطابقة عندما نعلم أن وهب بن منبه*32"شخصية، على دراية كبيرة بأساطير الأقدمين، و دعاوي التوراة. صحبة كعب الأحبار"

ومنهما تسرّب الفكر الميثولوجي للمفسرّين التابعين. و بخاصّة أن نصّ الآية يتيح فرصة إحضار التصور البدائي لعملية الخلق.

وفي مقام آخر، يبدو أن بدء الخلق، لم يكن يتصدر كتب المفسرين لأهمية الوقوف على المادة،التي منها تمّ وإنّما كان اهتمامهم موّجها في الأساس للشيء الذي كان له قصب السّبق على الإطلاق. إذ نصادف مادّة أخرى، كانت فيما يُعتقد أوّل المخلوقات و ذلك عند اعتبار أن "أول مَا خلق الله القلم. فقال له، اكتب. فقال، يا رب، وما أكتب قال، اكتب القدر فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام السّاعة"33

ومهما يكن فإن "الماء" كان حاضراً حين الخلق، بل يمكن الذهاب بعيدا واعتباره أصلاً لجميع الأحياء على الأقل {أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَ السَمَوَات والأَرْض كَانَتَا رَتْقاً. فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَي أَفَلاَ يُؤْمِنُون}34، وهي دعوة واضحة للكفار ليعلموا أن السّماء والأرض كانتا متصلتين لا انفصال بينهما، وهي حالة سمّاها العلم الحديث بالسّديم و أشار إليها القرآن الكريم بالدّخان. و فعل الفتق هو الذي حدّد ما هو أرضي، و ما هو سماوي، و كان الماء مصدر كلّ شيء حيّ. و لن تضيف آية {ثُمَ استَوَى إِلَى السَّمَاء وَ هِيَ دخَان فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْض ائتِينا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتْ، ائتنا طَائِعِين}35 إلا تأكيدا آخر على أصلية الماء و أسبقيته، و "الغاز" المشار إليه هو في الأصل مادة منه.

إن تأويل المفسّرين القدماء المؤسسين لمنهج خاص في قراءة القرآن الكريم، خاضع في كثير من وجوهه لأفكار سابقة، تبتعد كثيرا عن النّص، فتستحضر

تصوّرات كانت في الأساس وليدة قلق و مصير مجهولين لدى أقوام لم يكن لديهم ما يقيهم من حرقة السّؤال. و قد يكون ذلك سببا في تحرج المفسرين المحدثين من الخوض في مسألة الخلق الأول، أو البحث عن حالة "الماء" و مصدره، و بأي شكل، كان العرش عليه، فهي ((زيادات لم يتعرض لها النّص، و ليس لمفسّر يدرك حدوده أن يزيد شيئا على مدلول النّص في هذا الغيب))36. و من ثم بقيت إشكالية الخلق الأول، يتنابها كثير من التناقض، و يعتريها غموض ليس باستطاعة الإنسان تجليته. وإن تكررت محاولاته، فأمر التكوين الأول متروك لله وحده.

الهوامش

* 1 ، تقديم القرآن" على بقية الكتب السماوية، و إن كان آخر انذار للبشر مبرر بقدسيته أولا و بوثوقية نصوصه على خلاف الكتابيين".

2 ، الأنبياء، الآية، 30.

3، النور، الآية، 45.

4، الطّارق، الآية، 5،6.

5 ، الحج، الآية، 5.

6 ، الشعراء، الآية، 173 . و النّمل، الآية، 58.

7 ، الفرقان، الآية، 48.

8 ، هود، الآية،82.

9 ، الفرقان، الآية، 40.

10 ، أحمد أمين ، فجر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط11 ، 1979 ، ص،24.

11 ، الخروج، الإصحاح الثاني.

12 ، التكوين، الإصحاح السّادس و العشرون.

13، التكوين، الإصحاح السابع.

14، الخروج، الإصحاح السابع.

15، الخروج، الإصحاح التاسع.

16، الخروج، الإصحاح التاسع و العشرون.

17، الخروج، الإصحاح التاسع و العشرون.

18 ، الخروج، الإصحاح الامعاج الرابع عشر.

19* ، نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الشعراء اليهود [السموال] و كذا تأثيرات يهود خيبر.

20 ، إنجيل يوحنا، الإصحاح الرّابع.

21، نفسه، الإصحاح السابع.

22، ينظر إنجيل متى، الإصحاح الثالث.

23، إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع.

، سبتينو مرسكاني، الحضارات السّامية القديمة ، السّيد يعقوب بكر ، ، دار الرقي (دط) بيروت،لبنان 1986 ص ،74.

25، التكوين، الإصحاح الأول.

26، فراس السّواح،مغامرة العقل الأول، ص 135.

27، مرسيا إلياد،المقدس الدنيوي ، تر، نهاد خياطة ، العربي للطباعة و النشر ، ط1 سوريا 1987 ، ص، 57.

28، هود، الآية،07.

29، ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن الكريم (تفسير الطبري) ، دار الفكر ،لبنان 1978 ، (دط) 13/ م06 ، ص،04.

30، نفسه، ص05.

31 ، نفسه، ص04.

32، نفسه، ص05.

33، "أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني صاحب الأخبار و القصص، و كان له معرفة بأخبار الأوائل و قيام الدنيا و أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم و سلامه، و سير الملوك، ذكر عنه ابن قتيبة في كتابه المعارف أنه كان يقول "قرأت من كتب الله تعالى اثنين و سبعين كتابا....."، ابن كلخان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان– تح، إحسان عباس ، دار المعرفة ، لبنان ، 1977 (د ط) ، 6/ 772.

34، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دارإحياء التراث العربي ، ط2 لبنان ، 6 / 222.

35، الأنبياء، الآية، 30.

36، فصلت، الآية، 9 – 11.

1 ، سيد قطب، في ظلال القرآن ، دار الشروق ،لبنان ، ط 11 ، 1985 ، 4/ 4.